القصص القرآني

سلسلة لقاءات قدمت في رمضان 1439 هـ

إبراهيم عليه السّلام

أ. أناهيد السميري

اللّقاء الثّامن

مدونة علم ينتفع به

www.tafaregdroos.blogspot.com

بسم الله الرّحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكن سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

http://tafaregdroos.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

- ✓ منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- ✓ هذه التّفاريغ من اجتهاد الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- ✓ الكمال لله عزّ وجلّ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

[سورة البقرة: آية ٢٦٠]

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا ونسأله بمنّه كرمه أن يجعلنا من أهل القرآن أهله وخاصّته، اللّهمّ آمين

قد منّ الله عزّ جلّ علينا بتخصيص هذه الجلسات في المُدارسة للتّعرّف على أبينا إبراهيم، أبو الأنبياء، الّذي رفعه الله وكرّمه، وجعل له المنزلة العليا. وكنّا قد وصلنا إلى موقفه في المُحَاجّة وقد منّ الله عزّ وجلّ علينا أمس وتناقشنا في موقفه في المُحَاجَّة، وكان هذا الموقف في المُحَاجّة، موقفا يدلّ على حكمة إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم، وجودته في المناظرة، سواء كان هذا أنّه انتقل من حُجَّة إلى أوضح منها، أو أنّه فرَّعَ حُجَّة على حجّة، لكن هو من دلائل حكمته، وهو من الشّواهد على أنّ أولياء الله يُخْرِجُهُم الله من الظّلمات إلى النّور، فيُخْرِجُهُم بنفسهم من الظّلمات إلى النّور ويعطيهم من الحكمة ما يوفّقهم به لإخراج غيرهم من الظّلمات إلى النّور أيضا.

وكانت القصّة شاهدا على هذا، وقد لاحظنا أنّ إبراهيم عليه السّلام لمّا أتى يتكلّم عن الله كان ذاك العبد المُفتخر، المُعتزّ، فقال: {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} فأضافه إلى نفسه، كأنّه يفتخر بأنّ الله سبحانه وتعالى ربّه [1]وهذا من دقائق حاله، فهو على الحقّ، ويحبّ الحقّ، وينصر الحقّ، ويعتزّ بالحقّ.

ولاحظنا أيضا أنّ إبراهيم عليه السّلام اعتمد على هذه المسألة الفطريّة الّتي لا يستطيع عاقل مهما بلغ في كِبرِه وغُروره أن يُنازع فيها، لكنّ المُلْك _ سبحان الله _ أطغاه، لأنّ الإحياء والإماتة متّفق على أنّ الإنسان لا يمكن له أن يتدخّل فيها، لكي تتصوّروا كيف أنّ المجادل قد يصل في المُكابرَة عن العلم إلى أن يدّعي شيئا هو متأكّد بأنّه لا يملكه، لكن هو قاله في مضائق المُحَاجَّة، والإنسان في الحقيقة في مضائق المُحَاجَّة قد يلتزم بأشياء لو راجعها يجد نفسه ليس صائبا فيها، ولكنّه الكِبْر.

فهكذا نرى إبراهيم عليه السّلام من أهل التّوحيد، يحبّ التّوحيد، ويدافع عن التّوحيد، ويفتخر بالتّوحيد، فيقول {رَبِّيَ} مفتخرا بهذه الإضافة {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ}.

[1] [البقرة: ٢٥٨]

هذه الأخبار الّتي أتتنا عن إبراهيم عليه السّلام كان واضحا جدّا أنّه من أهل النّور، وكان واضحا جدّا أنّ المَلِكَ الّذي أتاه الله المُلْكَ كان من أهل الضّلال، واستشهد إبراهيم عليه السّلام بهذه الآية العظيمة الّتي هي آية الإحياء والإماتة، ثمّ انتقل منها لآية التّدبير العظيمة: {فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ} وأتى بعد هذه الآية، آية الّذي مرّ على قرية وهي خاوية، ثمّ أتت آية ثالثة عندنا فيها مرّة أخرى لإبراهيم عليه السّلام، وهذه الآيات الثّلاثة كلّها متعلّقة بالآية الأساس الّتي فيها الخبر أنّ {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} فالخبر الثالثة أو الآية الثّالثة الّتي مرّ فيها خبر إبراهيم عليه السّلام، كثيرا ممّن يقرأها أوّلا: لا يتصوّر العلاقة الوثيقة بين الموطن الأوّل الّذي حاجّ فيه إبراهيم عليه السّلام فيه المَلِكَ، وبين هذا الموطن الّذي فيه أيضا الكلام عن الإحياء والإماتة، ومن ثمّ لا يتصوّر العلاقة بأنّ {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}

نستمع إلى الآية أوّلا ثمّ نعود للمناقشة:

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}

هذه الآية فيها خبر مهمّ جدّا عن إبراهيم عليه السّلام، فيها خبر يتضمّن طلب إبراهيم عليه السّلام لشيء متّصل بمسألة الإحياء والإماتة، لكن لا ننسى أنّ إبراهيم عليه السّلام هو الّذي حَاجَّ هذا الرّجل، حَاجَّ من أتاه الله المُلك، وحَاجَّه بالإحياء والإماتة، وهذا شَاهِدُ ثَانٍ لإبراهيم عليه السّلام {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ} وكأنّه يُقال: واذكر هذه الحال الّتي فيها بيان لتسديد المؤمن، ولطلب المؤمن الكمال.

ما هذه الحالة؟ هذه الحالة هي وقت قول إبراهيم عليه السّلام {رَبِّ} هذا أوّل الأمر، يعني ينادي الله بأنّه ربّه وهذه الكلمة والنّداء بها، له دلائله العظيمة فإنّ الرّبوبيّة لها أقسام:

- ✓ **ربوبيّة عامّة:** للعالم جميعا.
- ✓ **وربوبيّة خاصّة:** للمؤمنين.
- ✓ **وربوبيّة خاصّة الخاصّة:** لأوليائه المتّقين وعلى رأسهم الأنبياء.

[٢] [البقرة: ٢٦٠]

فلمّا ينادي إبراهيم عليه السّلام {رَبِّيَ} يعني يا من رَبَّيْتَنِي تربية خاصّة، ونقّلتني في أطوار الإيمان أزداد إيمانا كلّ يوم، وأزداد بصيرة كلّ يوم، وأنا لا أحيط من علمك شيئا {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}[٣] فربّي الّذي ربّيتني، وأعنتني على الاستقامة، وزدتني نورا ويقينا، وأعطيتني هذه العطايا العظيمة، فيستعطف بهذه الكلمة، كلمة ذلّ وانكسار واستعطاف.

ماذا يريد في دعائه؟ {أَرِنِي} يعني من الرّؤية البصريّة. يريد أن يرى ماذا؟ يعني اجعلني أنظُرُ وأرى بعيني، يرى بعينه ماذا؟ يريد أن يرى كيف تحيي الموتى؟ ومن أجل ذلك من البداية نُقرّر أنّ السّؤال عن الكيفيّة يعني: كيف يحصل هذا؟ فسأل هذا السّؤال ليصير علمه عَيَانًا وليس لشكّ وقع فيه.

دعونا نركّز على ألفاظ الآية ليكون هذا جليّا:

أوّلا قال: {رَبِّيَ} وقال {كَيْفَ} يريد ماذا؟ يريد الشّهادة البصريّة، لكي يصبح هذا علمُ عيان، فما سأل عن الإمكان لأنّ إبراهيم عليه السّلام لم يشكّ في القدرة، وما سأل عن معنى الإحياء لأنّ معنى الإحياء معلوم هو الّذي استشهد به لمّا حاجَّ الرّجل، لكن أراد أن يعلم الكيفيّة، وكأنّه يقول إذا مات الحيّ كيف تُحييه بعد أن تميته؟

فنحن نُؤكّد الآن أنّ إبراهيم عليه السّلام ما وقع في الشّكّ وسيتبيّن هذا من كلامه لكن أحيانا نسمع من يقول: أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: ((نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ))[٤]

وهذا الدّليل لابدّ أن يُفْهَمَ على حقيقته، فمعنى هذا الدّليل أنّه لو قدّر أنّه شاكٌّ لكنّا نحن أحقّ منه أن نشكّ، ونحن لا نشكّ، فإبراهيم أحرى ألاّ يشكّ، فالحديث مبنيّ على نَفْيِ الشّكّ عن إبراهيم.

ومن أراد التّفسير في ذلك فليقرأ في تفسير ابن عطيّة فقد بيّن رحمه الله بيانا واضحا بأنّ هذا الحديث يُقصد به نفيُ[٥] الشّكّ عن إبراهيم وليس إثباته له، وهذا ما نعتقده في الأنبياء، فما نلقى الله إلاّ ونحن مُحقّقين يقيننا أنّ الله قد قال: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} بل إبليس اللّعين بنفسه قال: {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[٦]

فإذًا من هم عباد الله المُخلصين؟ من رأسُهم؟ لا بدّ أن يكونوا الأنبياء، فلذلك لا يجوز على الأنبياء الشّكّ، ولابدّ أن تتيقّني بهذا، فإذا لم تكن للشّيطان عليهم سُلْطَة فكيف يشكّكهم؟ لكن لا تنسي أنّه يسأل كيف يريد أن يرى بعينه، يشاهد كيفيّة جمع أجزاء الموتى بعد تفرّقها، يعني كأنّك تتصوّرين كيف تصل الأعصاب والجلود بعد تمزّقها.

---

[٣] [البقرة: ٢٥٥]

[٤] [صحيح البخاري _ كتاب تفسير القرآن_ باب {وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى} [البقرة: ٢٦٠] _ حديث رقم 4286]

[٥] المحرّر الوجيز _ ابن عطيّة _ تفسير الآية ٢٦٠ سورة البقرة.

[٦] [الحجر: ٤٢]

[٧] [الحجر: ٤٠]

فكما سيتبيّن لنا الآن أنّه أراد أن يَتَرَقَّى من عِلْمِ اليقين إلى عَيْنِ اليقين.

وأنا أؤكّد على هذا الأمر لأنّ هذا من اعتقادنا في الأنبياء عموما، لأنّ الشّكّ لا يأتيهم، والآية تدلّ على ذلك، {كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى} هذا ليس عن شكّ والعياذ بالله في قدرة الله على الإحياء، وإلاّ فكيف هو يستشهد المَلِكَ بأنّ الله يُحيي ويُميت ثمّ هو يكون شاكّا في ذلك؟ لكنّه مرّة أخرى هو سؤال عن كيفيّة الإحياء، وهو على كلّ حال لا يُشترط في الإيمان الإحاطة بصورة الإحياء، لكن هو طلب علما ما يتوقّف الإيمان على علمه.

- تصوّروا المسألة لمّا يأتي أحدهم يقول: كيف يَحْكُم زيدًا في النّاس؟ هو لا يشكّ أنّه يحكم، وما يسأل عن ثبوت أنّه يحكم، إنّما يسأل عن كيفيّة حُكمه.
- يأتي أحدهم يقول أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: ((نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ)) الجواب: نعم نحن لم نشكّ لأنّ إبراهيم لم يشكّ.
- يأتي أحدهم يقول إنّ ربّنا قد قال: {أَوَلَمْ تُؤْمِنْ} الجواب: أنّ هذا الاستفهام للتّقرير وليس للإنكار ولا للنّفي، لكي تتصوّروه فكّروا: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}[٩] يعني قد شرحنا لك صدرك، فمعنى هذا {أَوَلَمْ تُؤْمِنْ} ألست قد آمنت؟ يعني لتقرير إيمان إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم، _ ألم تعلم _ ألم تؤمن _ يعني تقريرا لذلك.

فردّ إبراهيم عليه السّلام {قَالَ بَلَى} آمنت ولكن سألت {لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} معنى هذا أنّ سؤاله لم يكن عن شكّ بل وإيمانه مُقَرَّرٌ لكنّه أراد زيادة الطّمأنينة وهذا مطلب، فإذا كانت زيادة الطّمأنينة مطلبا من أحد مثل إبراهيم عليه السّلام فنحن أولى بذلك.

وهنا تنظري للقدوة كيف يسعى في حياته لتحصيل ما يزيده إيمانًا، فيُريد أن يرى بعينيه، وأن تنكشف له الأمور حتّى يصبح هذا الإيمان له عدّة شواهد، فينشرح الصّدر أكثر، ويحصل من السّعادة، والفرح بزيادة الشّواهد، ما لا يعلمه إلاّ من ذاقه، وهذا الشّعور عجيب جدّا في الحقيقة يعرفه من طلب لنفسه زيادة اليقين، فإنّه يكون مطمئنّا تماما أنّه هذا هو الحقّ ومتأكّد بأنّ هذا يوصل إلى الصّراط المستقيم. لكن كثرة الشّواهد تزيده سعادة، وفرحا، وانشراحا، وإقبالا.

- ولو مثلا نظرنا إلى تحريم الرّبا وأنّ الرّبا مَفسدة ومَهلكة، وسبب لكذا وكذا من المسائل العِظام في المجتمعات الّتي تكون نهايتها الانهيار الاقتصاديّ، ويكون قد سبقه انهيار أخلاقيّ، شحّ، وقتل، وربّما حروب، وفيما يُذكَر أنّ أهمّ سبب من أسباب الحرب العالميّة الأولى كان متّصلا بشيء في الرّبا، أَوْقَدُوهَا اليهود عليهم من الله ما يستحقّون، فاشتعلت.

---

[٨] [صحيح البخاري _ كتاب تفسير القرآن_ باب {وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى} [البقرة: ٢٦٠] _ حديث رقم 4286]

[٩] [الشرح: ١]

المهمّ الآن دعونا في الشّاهد، تصوّروا: أنت الآن الحمد لله ما عندك شكّ أبدا في أنّ الرّبا محرّمة وأنّها تُفسد المجتمعات، لكنّك الحمد لله خارج المنطقة الّتي تُرَابِي بعيدة عنها، لا رأيت الرّبا ولا رأيت فساده، ثمّ جاءت أخبار تقول أنّ الاقتصاد قد انهار في دولة كذا وفي دولة كذا المعتمدة على الرّبا، فقرأت الأخبار وفهمت المسألة أكثر.

هل قراءتك وما يحصل وراءها من مشاعر يقينيّة تؤكّد أنّ الرّبا جريمة، وأنّهم لمّا كانوا يعيشون في تلك الغفلة الّتي فيها وكأنّهم رأوا خيريّة الرّبا، وأنت تقولين لهم الرّبا حرام يُهلكُكم، وهم يقولون الاقتصاد العالمي قائم عليه، أين الفساد الّذي تتحدّثون عنه؟

أنت مطمئنّة ومتأكّدة غير آبِهَةٍ لهم، وتُحاجّيهم، فتنظّرين لهم وتقولين لهم يكفي أنّه ظلم، فالمديونيّة لمّا تُضاعَف إنّما تكون جريمة على الفقير، وأنّ هذا سيؤدّي إلى الطّبقيّة الشّديدة، لكن أنت مازلت تنظّرين الآن كلاما نظريّا.

ولمّا انهار الاقتصاد وقرأت حوله، فأنت الآن لا تشمتين فيهم ولا غيره، لأنّه أحيانا كثيرة في مثل هاته النّقاشات يُقال لك أنّك تشمت في النّاس، لا نحن لا نشمت في النّاس، وإن كانوا يستحقّون الشّماتة لكن بعيدا عن هذه المناقشة يصير أو ما يصير؟ صحيح أو غير صحيح؟ وكيف واحد يُذنب ويحارب الله وعندما يظهر قوّته ما أفرح لإظهار الله لقوّته؟ لكن بعيدا عن هذا الميدان، ما يحصل في القلب من فرح أن أصبح الأمر عين اليقين، يعني بعد أن كنت تسمعين الخبر أنّ الرّبا فساد للمجتمعات علم يقينيّ متأكّدة منه ما تشكّي فيه أبدا، أصبح عندك تقريرا في يدك كلّما قرأته وزدت فهما له وعرفت كيف انهار الاقتصاد، فقد انهار الاقتصاد قريبا بسبب أنّ النّاس يبيعون ما لا يملكون، هذه أوّل قاعدة ربويّة: يبيعون ما لا يملكون، أنظري هذه الكلمة المختصرة جدّا في الشّريعة: لا تبع ما لا تملك، رغم سهولتها: فأوّل شيء امتلك ثمّ بع، سبّبت انهيار اقتصاد دول وما يُسمّونها بأزمة البنوك، حتّى أنّ بنوكا كثيرة أعلنت إفلاسها.

ماذا يُعتبر هذا الشّاهد؟ يعتبر عين اليقين، فنحن متأكّدين الآن أنّنا جميعا نعلم أنّ الرّبا مُحرّم ومَفسدة، فلمّا تأتي تسألين كيف يُفسد الرّبا المجتمعات؟ هل هذا سؤال شَاكٍّ؟ أم سؤال من يطلب شواهد تزيده يقينا؟ إذًا فهو معلوم أنّ هذا سؤال من يطلب شواهد تزيده يقينا. ومثل هذا فكّري:

- يأتي أحدهم يقول لك: الاختلاط يسبّب فساد المجتمعات لأنّه وسيلة للزّنا، والزّنا لا نقاش فيه أنّه يفسد المجتمعات، ولذلك الشّريعة حرّمت الاختلاط من باب تحريم الوسائل المؤدّية إلى المحرّمات، فأنت متأكّدة من هذا، ثمّ ترى بعينك كيف يحصل الفساد نتيجة الاختلاط. فلمّا تأتيك قضيّة فيها زنا والعياذ بالله تكون كالشّاهد اليقيني على حُرمة الأمر. إذًا لا سؤال كيف يدلّ على الشّكّ، ولا طلب الزّيادة تدلّ على الشّكّ بل على العكس.

الآن ألسنا كلّنا متأكّدين أنّ ربّ العالمين هو الخلاّق العَليم؟ نعم متأكّدين، ومع ذلك صفة _ أولوا الألباب _ أنّهم يتفكّرون في خلق السماوات والأرض {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ} فيخرجون بالنّتيجة {فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}[1] هم مُدِحُوا بهذا لأنّه كان سببا لزيادة اليقين. فأنت الآن لو قرأت عن السّماء كما وصف الله، وقرأت في تفاسير الآيات، تكوني بهذا طلبت زيادة اليقين.

أخذنا وقتا طويلا في مناقشة هذا الأمر لسبب مهمّ لأنّ هذا من اعتقادك في إبراهيم عليه السّلام خاصّة واعتقادك في الأنبياء عامّة، لكي لا يتطرّق الشّكّ لإبراهيم عليه السّلام هذا من جهة.

طلب الإنسان لليقين أمر ممدوح، وهو قد أخذ الطّريق الأيسر صلّى الله عليه وسلّم، فطلب من ربّه أن يريه، فأجابه ربّه تقريرا لحالته: أنّك مؤمن، تقريرا لإيمان إبراهيم عليه السّلام، فهو أجاب: بلى أنا مؤمن ولكنّي طلبت هذا الطّلب ليطمئنّ قلبي، {لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} يعني يزداد هذا اليقين الّذي يسبّب الفرح والسّرور كما اتّفقنا.

ماذا قيل له؟ الآن النّور يزداد، فالله عزّ وجلّ قد أخرجه من الظّلمات إلى النّور بالعلم، وهذا النّور يزداد، قال: {فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ} طبعا في هذا لم يحصل تعيين ولا نوع الطّير ولا جنسه، فالكلام حول هذا ليس فيه فائدة، الله لم يعيّنه ولا يهمّنا ما دام لم يعيّنها، فلو هناك فائدة من بيانها كان ربّنا علّمنا ما هي الطّير.

بعد ذلك أمره الله عزّ وجلّ {فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ} يعني بالضمّ: صُرْهُنَّ إِلَيْكَ يعني: من صَارَ يَصُورُ، أي أَمِلْهُنَّ إِلَيْكَ، يَصُورُهُ يعني: يَمِيلُهُ. فالمعنى: أَمِلْهُنَّ واضْمُمْهُنَّ إِلَيْكَ، واجْمَعْهُنَّ إِلَيْكَ. يعني: تَأَمَّلْهَا.

وكأنّه يُقَالُ أُنْظُرْ إِلَيْهَا، وَانْظُرْ إلى أجزائها، لكي تَعْلَمَ بعد الإحياء أنّه لم يذهب أيّ جزء من أجزائها.

وبعد ذلك أُمِرَ بذبحها، {ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا} بمعنى خذ هذه الأربعة _ والله أعلم لماذا أربعة والله أعلم ما نوعها _ أَمِلْهُنَّ إِلَيْكَ، واضْمُمْهُنَّ إِلَيْكَ، واذبحهنّ، وفرّق أجزاءهم على الجبال الّتي حولك، {ثُمَّ ادْعُهُنَّ} أي نَادِها، وأنظر ماذا يحصل عند نِدَائِهَا.

ففعل إبراهيم عليه السّلام جمع الأربعة، ذبحهنّ وقطّعهنّ، وجعل على كلّ جبل جزءا ثمّ دعاهنّ.

لمّا ناداهم قال الله له هذا ما سيكون، أنّ الله سيحييهم، فسيأتينك سعيا، فكان الشّاهد هنا أنّ الله عزّ وجلّ يأمره بأن يذبحها فتذهب الرّوح، وإذا ماتت توقّفت الحركة فيناديها، فيُحييها الله وتأتي سعيا {ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا} وسعيا بالنسبة للطّير أن تأتي طائرة فهذا الأَلْيَقُ بها.

[1] [آل عمران: ١٩١]

ماذا سيحدث بعد هذا في الفِكْرِ؟ {وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} يعني إذا رأيت هذا، علمت كمال قدرة الله، وكمال عزّته وكمال حكمته سبحان الله يقول لها كن فيكون، له عزّة القهر، يظنّ الإنسان نفسه أنّه يستطيع أن يفعل والحقيقة أنّ الله يُعطيه من الحول والقوّة ليفعل. والخلق ليس لهم عزّ إلاّ بالله، ولا يوفّقون في شأن إلاّ بأمر الله فهو سبحانه وتعالى العزيز الحكيم.

ففهمنا من هذا الموقف أنّ العبد يطلب لنفسه الكمال في الإيمان، هذا مطلب، خصوصا لمّا ترى قُدْوَتُكَ إبراهيم عليه السّلام هذا حاله، يطلب لنفسه الكمال في الإيمان فيُرزق هذا بِسَبَبٍ، يعني الله عزّ وجلّ يُسَبِّبُ له سببا لزيادة الإيمان فيوفّقه فيأمره أن يفعل كذا وكذا، وأيّ طلب لزيادة الإيمان إنّما هو من الإيمان.

فمن الإيمان أن تطلب زيادة الإيمان، خصوصا ونحن نقرأ في كتاب الله أنّ هناك أناسا من جنس المؤمنين، الّذين ظاهرهم الإيمان، يعبدون الله على حرف {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ} يعني على طرف {فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ} فهذا إيمانه ضعيف مهزوز، نعوذ بالله، أيّ فتنة تأتي شبهة أو شهوة ينقلب على وجهه، فيتعرّض الإنسان إلى ما يُنقص إيمانه بهذه الفتن.

لكن إذا كنت مشغولا بعقيدتك كما كان إبراهيم عليه السّلام مشغولا بها، وإذا كنت مشغولا بإيمانك كما كان إبراهيم عليه السّلام مشغولا به، فستطلب ما يزيد إيمانك.

ونحن في طلبنا لِمَا يزيد الإيمان، نسأل الله عزّ وجلّ أن يزيدنا إيمانا، نتوسّل إليه بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يزيدنا إيمانا، نرجو منه سبحانه وتعالى أن يزيدنا إيمانا، نأخذ المسلك الّذي وُصف لنا في التّدبّر في آياته الشّرعيّة، والتّفكّر في آياته الكونيّة من أجل أن نزداد إيمانا، لكن المهمّ أن نفهم أنّ زيادة الإيمان مطلب من أهل الإيمان مهما كان حال الإنسان فليكن مطلبه زيادة الإيمان.

ونحن في هذا الموسم العظيم قد سبّب الله لنا كلّ أسباب زيادة الإيمان، سبّح عشرا تزداد إيمانا، كبّر عشرا تزداد إيمانا، صلّ النّوافل تزداد إيمانا، صلّ في وقتها تزداد إيمانا، صلّ بطمأنينة وبخشوع تزداد إيمانا، احتسب على الله صيامك، فكّر في يوم القيامة وكيف هذا الصّيام سيكون نافعا لك، كيف الصّيام يأتي شفيعك، كيف القرآن يأتي شفيعك يزداد إيمانك.

تأمّل حالك ولطف الله وقرّر أنّ هذا من لطفه يزداد قلبك يقينا ورسوخا، انظر إلى تفاصيل الأقدار وقرّر في قلبك أنّ الله حكيم، تزداد إيمانا ممّا عرفت من حكمته فيما سبق، وأنّه دائما معك يُخرجك من المآزق، فكّر بحسن هذا الظنّ فيما هو مستقبل تزداد إيمانا.

---

[١] [الحج: ١١]

سبحان الله هذا الشّهر الكريم بنفسه منّة من ربّ العالمين لزيادة الإيمان يعني فرصة أن حبس عدوّك الأعظم _ مردة الشّياطين محبوسة _ يقوّيك الله على صغارها، يقوّيك الله على نفسك، وبفضل الله حولك المسلمين صائمين، قائمين، هذا يتلو كتاب الله، وهذا يدعو.

بل هناك منّة عظيمة مع هذا كلّه تحتاج إلى تأمّل، متوفّرة اليوم بسهولة، النّظر إلى الحرمين وإقبال النّاس إليهم عبر الشّاشات، فترين كيف الله عزّ وجلّ يُقبِلُ بقلوب العباد، كيف يأتون؟ ويسيرون ويسعون، كيف يطوفون؟ كيف قُرْبَ الإفطار يدعون؟ كيف مشغولين؟ فهم ليسوا مشغولين بالدّنيا، عجيب هذا الشّأن، ناس هنا أتوا ما لهم في الدّنيا شيء، ولن يعطيهم أحد هنا شيئا لمّا يجلسوا، ويقرؤوا، ويزدحموا لكي يدخلوا، ويسرعوا، ويبحثوا عن أماكن، ويجتهدوا، لن يعطيهم أحد هنا في الدّنيا شيئا فكلّ هؤلاء مقبلين على ربّ العالمين، سبحان الله كلّ هذه الأمور تزيد المؤمن إيمانا.

فلهذا لابدّ أن نفهم على إبراهيم عليه السّلام هنا صفة عظيمة، إيمانه يشغله يُريد له الزّيادة، وسيأتينا بعد ذلك كيف أنّه يخاف على إيمانه، يخاف أن يقع في الشّرك، مشغول بالإيمان يطلب له الزّيادة، فأنت تقولين: أنت يا إبراهيم الّذي جادلت عن التّوحيد والإيمان، وبيّنت لهذا الكافر أنّ ربّك الله هو الّذي يخلق، لازلت تطلب زيادة الإيمان؟ نعم يطلب زيادة الإيمان لأنّه يعلم أنّ الإيمان درجات، والنّاس يعلون فيها على حسب هممهم في العناية بالتّوحيد والإيمان، وهذا والله هو الخير المَحْض، وهذه هي التّجارة الرّابحة، وهذا الّذي يجب أن نعتني به لأبنائنا، كلّ يوم نكلّمهم عن أسباب زيادة الإيمان، كلّ يوم نعينهم على أسباب زيادة الإيمان، كلّ يوم ندعو لأنفسنا ولهم بأسباب زيادة الإيمان.

أسأل الله عزّ وجلّ بمنّه وكرمه في هذه السّاعة من ساعات نهار رمضان أن يزيدنا جميعا وأبناءنا وأبناء المسلمين والمسلمين في كلّ مكان أن يزيدنا جميعا الإيمان، ويكشف عن قلوبنا جميعا غُمّة الدّنيا والتّعلّق بها، ويجعلنا نذوق طعم أن نعبده وكأنّنا نراه، فنتمثّل لقاءه بين عينينا وهو راض عنّا غير غضبان، اللّهمّ آمين.

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته